الرسول الداعية في القران الكريم

السيد محمد حسين فضل الله

٢ ـ القرآن يحدد الملامح العامة لشخصية النبي محمد (ص)

ما هي صورة النبي في القرآن ؟ . . ما هي ملامحه العامة . . ؟ هل هناك سيرة ذاتية تحدد لنا مولده ونوازعه الذاتية وغير ذلك من الملامح الشخصية التي تتجمع في داخل حياته دون أن يكون لها تأثير في حياة الناس . . ؟

ليس في القرآن أية سيرة ذاتية للنبي محمد (ص) . . لأن السيرة الذاتية ليست لها أية قيمة عملية في حساب الرسالة إلا بقدر ما ترتبط بالرسالة ذاتها مما يحقق لها عطاء وغنى وحركة . . بل ربما نفهم من خلال بعض الأيات الكريمة ، أن كل عظمة الرسول هي في تجسيده الحي للإسلام ، فلا تريد لنا أن نتوقف عند حياته في الدنيا لنتجمد أمامها ونخشع لها ، فإذا مات وانتقل إلى ربه ماتت الرسالة في حياتنا باعتبار أن الإرتباط بها تابع للإرتباط به فلا وجود لها في حال غيابه عن الدنيا . . بل تريد لنا أن نجعل حياته البداية والمنطلق والمرآة الصافية التي ننطلق من خلالها إلى الحياة لنراها في صفاءها ونقاءها على أساس ما تمثله شخصيته من رسالية المضمون والممارسة فإذا غاب عنا فان رسالته المتجسدة في آيات الله وكلماته وسيرته باقية لدينا ، لنتابع مسيرتنا على هداها إنطلاقاً من الفكرة التي تجعل إرتباطنا به تابعاً للإرتباط بالرسالة باعتباره التجسيد الحي لها . . وذلك هو قوله تعالى :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » .

وقد تتضح هذه الصورة بشكل كبير في الأية الكريمة التي توحي لنا بأن علاقتنا برسول الله ترتكز على أساس صفته الرسالية وقيمته كخاتم للنبيين ، بعيداً عن أية صفة أخرى أو علاقة ثانية . . وذلك هو قوله تعالى :

« **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** » .

فكيف قدم القرآن الكريم شخصيته إلينا في ملامحها الأصيلة . وما هي علاقتها بالخط العملي للرسالة . .

إننا نلاحظ أمامنا الآيات التي تتحدث عن خُلُقه العظيم وعن أسلوبه في الحوار ومشاعره تجاه الأخرين ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ .

﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّمْ حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم** ﴾ **التوبة/ ١٢٩** .

﴿ **فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ **آل عمران/ ١٥٩** .

﴿ **فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾ **الاعراف/٥٧** .

إن الآية الأولى تتحدث عن خلقه العظيم في صورة عامة لتوحي لنا أن الشخصية الرسالية لا بد لها من أن تتسامى بخلقها في علاقتها بالأخرين . لأن الخلق يمثل سمو الرسالة وواقعيتها في الإنسان ، وسمو الإنسان في الرسالة باعتبارها تمثل الخط الأخلاقي العظيم في حركة الإنسان في الحياة . . مما يجعل من تحرك الإنسان في دعوته منطلق قوة لا منطلق ضعف لما يوحيه من ثقة وامتداد وإطمئنان .

وفي الآية الثانية نواجه الشخصية الرسالية من خلال الإهتمامات الذاتية بالآخرين في الداخل فالنبي يعيش مع الناس حياتهم ومشاكلهم ومتاعبهم في شعور عميق بكل الأشياء التي تجهدهم وتشق عليهم ، ويحرص عليهم حرصه على نفسه ، في إحساس داخلي ومبادرة عملية بالرحمة والرأفة . .

وأما الآية الثالثة فإنها تتحدث لنا عن صفتين أساسيتين في نجاح الرسالة ،

لين الجانب ووداعة الكلمة وسماحتها ، ورقة القلب ورحمته . . لأن الإنسان الذي يعيش قسوة القلب وشدته لا يمكن أن يعيش الحب للآخرين ، وبالتالي لا يستطيع التفاعل معهم في عملية صدق ومعاناة . . أما الإنسان الذي يعيش فظاظة اللسان ونزق الكلمة وغلظة الأسلوب فإنه لا يستطيع أن يدخل إلى وجدان الناس وضمائرهم .

ونلتقي في الآية الرابعة بالصفة الأساسية في شخصية الرسول ، وهي ايمانه بالله وكلماته حيث تلتقي مع آية أخرى في موضع أخر . . ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدّق به** ﴾ . . لتؤكد إنطلاقة الدعوة من موقع الأيمان العميق بمفاهيمها ، المنطلقة من المسؤولية في الداخل ، لا من موقع المسؤولية من خارج الذات .

تلك هي بعض ملامح الصورة التي تفرض علينا السؤال التالي . . لماذا ركز القرآن الكريم على هذه النوعية من الصفات دون غيرها ؟

ربما يكون الأساس في ذلك كله ، هو ما ألمحنا إليه في بداية هذا الفصل من أن القرآن يركز على شخصية الرسول في شخصية النبي محمد (ص) ولذلك فإنه يتحدث عنه من خلال الصفات المتعلقة بالدور الرسالي له . لأن ذلك يقتضيه إنفتاحاً روحياً على الناس ومشاكلهم ، وخُلُقاً رفيعاً يتسع لكل السلبيات التي تواجهه من خلالهم . وإسلوباً حكيماً رقيقاً في ايصال الدعوة إلى قلوبهم ، وايماناً بالرسالة لا يشوبه شك ولا يصيبه اهتزاز لتكون الرسالة جزءً من ذاته . . وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم في الآية الثالثة : ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ . .

ولكن . . هل هذه هي صفات الرسول فيما يريد القرآن أن يوحيه ليعطي للناس الصورة العظيمة عن شخصيته ، أو هي صفات الداعية المسؤول الذي كان النبي الأنموذج الأمثل له . . . مما يجعلها من صفات القدوة للعاملين في سبيل الله . .

إننا نعتقد انها من صفات القدوة التي تدعو العاملين إلى أن يعيشوها في حياتهم ليشعروا بأن أخلاقهم ليست شأناً ذاتياً لهم ، وأن أساليبهم ليست ممارسات شخصية لأنفسهم . فليس لهم أن يعيشوا كما يريدون في كل نقاط ضعفهم الأخلاقي ، وليس لهم أن ينطلقوا مع مزاجهم الذاتي في أساليبهم العملية ، وليس

من المهم أن يتعقد الناس من الرسالة أو يكفروا . . ليس من حقهم ذلك لأن الرسالة ليست أمراً شخصياً بل هو أمر الله وأمر الناس فلا بد لهم أن ينسجموا مع مصلحتها فيخضعوا أخلاقهم وأساليبهم لخطها الأصيل ، أو ينسحبوا من مواقع المسؤولية ليوفروا على الإسلام مزيداً من المتاعب والسلبيات التي يواجهها من خلال سوء تصرفات الدعاة إليه . .

* * *

٣ ـ حالته النفسية أمام حالات الجحود والتكذيب والكفران

إن القرآن يصور لنا النبي أمام التحديات في إطار الإنسان الذي تضغط عليه التحديات في بعض المواقف حتى تكاد أن تزلزله عن موقفه ، أو تقوده إلى التراجع ، وذلك نظراً لحراجة الموقف الذي يواجهه مما يوحي أن القضية لا تعيش في طبيعته الذاتية بل في طبيعة التحديات التي توحي بشيء من هذا القبيل لولا الايمان . . ولنتابع بعض هذه الآيات .

﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك . . إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ هود/١٢ .

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كُذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ الانعام/٣٣ ـ ٣٥ .

إننا نلاحظ في هذه الآيات جواً مثيراً يريد الأخرون خلقه في نفس الرسول ، فهم يحاولون أن يحشدوا العوامل السلبية بتقديم الطلبات غير المعقولة التي لا يملكها بجهده البشري ليكشفوا أمام الناس ضعفه في دعواه الرسالة عن الله ، وليضعفوا ثقته بقوة موقفه لأنه يتحرك في إطار محدود جداً لا يثبت أمام التحديات الموجهة إليه .

وهنا تأتي الآيات لتضع القضية في مكانها الطبيعي ، وهي أن التحديات لم تواجه دوره الطبيعي في خط الرسالة ليشعر بالضعف من خلال ذلك ، بل واجهت دوراً غريباً عن مهمته على أساس المفهوم الخاطىء عن طبيعة دور الرسول في الحياة . . وليس عليه أن يستجيب لهذا الخطأ بالإستجابة لمطالبهم لأن ذلك يؤكد المفهوم الخاطىء في نفوسهم . . بل ربما كان عليه أن يواجههم ـ من خلال قوة موقفه ـ بتصحيح هذا المفهوم .

ثم تتحرك الآيات لتربط الموقف بنقطة أساسية تخرج الموقف عن جوّ التحدي للذات . . وهي : أنه لا يتحرك بصفته الذاتية ، بل بصفته الرسالية التي تعني أنه يمثل الله في دعوته لأنه يدعو إلى الله باسم الله ، وبذلك يكون التكذيب موجهاً إلى الله ، وليس موجهاً إليه ، مما يدفع بالقضية بعيداً عن جو التأزم النفسي الخاضع غالباً للمؤثرات الذاتية .

ثم تمتد الآيات في تفريغ الداخل من جوّ الأزمة باسلوب أخر . . فإن التكذيب ليس حادثاً طارئاً بل هو حلقة من سلسلة متصلة في تاريخ النبوات ، تنطلق من حقيقة موضوعية ـ وهي أن النبي ـ أي نبّي ـ ينطلق لتغيير العالم من الداخل والخارج ، من خلال القضاء على المفاهيم الخاطئة والواقع المنحرف ، فلا بد من أن يقابل بالتكذيب لأنه يتحدى الواقع المعاش الذي تتحرك فيه كل امتيازات الطغاة والجبابرة والمنحرفين ، ليلغي كل هذه الإمتيازات لمصلحة الإنسان . . وقد كان الأنبياء يصبرون على ذلك كله . لا من موقع التماسك الذاتي فحسب ، بل على أساس الفهم الواعي للواقع الذي يقرر بأن عملية التغيير لا بد أن تمرّ بمراحل طويلة يدور فيها الصراع حول العقيدة والمفاهيم والمواقف ليتحرك المجتمع في اتجاهها بين الرفض والتأييد ليتعمق تأثيرها في أعماق الحياة والإنسان .

ثم تؤكد هذه الآيات له . . أن هذا الموقف الطبيعي للنبوة السائرة ـ بقوة ـ نحو أهدافها وذلك بأن يكون الثبات الهادف اكبر من التحديات فلا يستمد النبي قوة موقفه من تجاوب الأخرين معه ، بل ينطلق من ثقته بربه وبنفسه في خطواته العملية نحو المستقبل . . أما إذا أراد أن يستسلم لنفسه فينسحب من الموقف

ويعيش الضيق الذاتي ، وينسحق نفسياً تحت ضخامة التحديات ، فليجرب جهده الذي لا يستطيع أن يحقق شيئاً مما يطلبون منه .

ثم تركّز الآية على نقطة مهمة جداً . . وهي إثارة التساؤل عن الهدف من كل هذا الجهد الذي يريد أن يصل من خلاله إلى هدايتهم بشكل غير طبيعي وذلك بالتجاوب معهم فيما يريدونه من تغيير الواقع بطريقة معجزة . . فإذا كان الهدف هو هدايتهم بطريقة غير عادية فلا حاجة إلى ذلك لأن بإمكان الله أن يهديهم بطريقة تكوينية فيجعلهم مهتدين . . ولكن حكمته انطلقت على أساس إيمانهم بطرق طبيعية من خلال القناعة الذاتية في ظروفها الموضوعية الطبيعية .

* * *

وقد نلتقي ـ في آيات مماثلة ـ في تصويرها للجو النفسي الذي يمر به الداعية متجسداً في شخصية الرسول عندما يتعرض للأساليب العاطفية التي تحاول أن تجره إلى السير في غير خط الرسالة من أجل أن يربح ثقتهم عندما يريدون أن ينقلوه من موقع إلى موقع للإيحاء له بأن ذلك يجعلهم قريبين إليه . . وبالتالي إلى دعوته ليأخذوا منه الإعتراف الرسمي بما يريدون ثم يتركونه بعد أن يستنزفوه ويستنفذوه . . وهذا ما نتمثله في هذه الآيات الكريمة : ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً وإن كادوا ليستنفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً** ﴾ الاسراء / ٧٣ ـ ٧٦ .

إن جو الآيات يوحي بأن هناك أساليب دقيقة خبيثة قد استعملت من قبل الكافرين لزحزحة الرسول عن موقفه وفتنته عن رسالته من أجل أن يخرج على خطها ومفاهيمها الأساسية ، لمصلحة خط الكفر الذي يراد منه أن يقدمه للناس بأسم الأيمان . . وبذلك يكون قريباً إليهم وصديقاً لهم ، ولعل في التعبير بـ « ليفتنونك » إيحاءً ببراعة الأساليب ومرونتها بحيث لا تستثير لديه روح الحذر بل تنساب في مشاعره إنسياباً عفوياً يواجه النوازع الحميمة بهدوء وانسجام ليتحول ـ لا شعورياً ـ عن خط مبادئه المثلى .

أما السؤال الآن . . فهو هل كانت الحالة النفسية للنبي هي ما تواجهنا به الآية لتكون النتيجة هي أن النبي قد يستسلم للتأثيرات المتنوعة للأساليب الذكية من قبل الأعداء ، لولا أن الله يثبته على الخط بالروح القدسية التي تستيقظ في أية حالة من حالات الغفلة فينتبه إلى طبيعة الموقف من خلال النتائج التي يقود إليها ، أو أن القضية هي اعتبار شخصية النبي انموذجاً حياً للداعية المسلم الذي قد يتعرض لمثل هذه الأساليب فينجذب إليها إنجذاباً عفوياً تماماً كاختلاجات أعضاء الجسد لدى حدوث بعض الأسباب الموجبة لذلك ، فكان لذلك قيمة التأكيد على أهمية الثبات على الخط ، والوعي النفّاذ إلى الوسائل الجهنمية التي يحاول الأعداء من خلالها إبعاد العاملين عن أهدافهم .

وفي كلا الحالين نعرف أن النبي قد تعرض لمثل هذه الأساليب ، وأن القرآن قد نبه إلى خطورتها من خلال التنبيه على خطورة نتائجها في حساب المسؤولية بالمستوى الكبير ، وأثار أمام الداعية الفكرة الواعية التي تدفعه إلى الإبتعاد عن أجواء الخديعة التي يثيرها الكافرون من خلال عروض الصداقة في حالات الإنسجام . . وربما كان الواقع الذي نعيشه يتضمن كثيراً من هذه الأجواء التي تقرب من هذا الجو الخطر سواء على مستوى التيار المنحرف في العقيدة والحياة ، أو على مستوى الحكم المنحرف أو غير ذلك مما يواجهه الإنسان في صعيد العمل الرسالي .

وإننا نرى في هذا الأسلوب نموذجاً من أساليب القرآن الكريم لمخاطبة الأمة من خلال النبي محمد (ص) لأننا نعرف في شخصيته الرسالية القوة القيادية التي لا يمكن أن تهتز أمام كل عوامل الخديعة والإنحراف . . ولعل المراد بتثبيت الله في هذه المواقف ، هو ما ارتكزت عليه شخصيته من عوامل القوة والأيمان . . لا أن يكون شيئاً طارئاً لم يكن موجوداً لديه .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن بعض الحالات النفسية التي كان يعيشها النبي محمد (ص) إزاء حالات الكفران والجحود . ولكن في إتجاه آخر غير ما أشرنا إليه . . فقد كان يتطلع إلى الكافرين بروح الإنسان الذي يتألم لهم ويحزن عليهم لأن كفرهم وطغيانهم سوف يشقيهم في حياتهم الدنيا عندما ينحرفون عن الخط

المستقيم فيبتعدون عما يهيء لهم السعادة فيها ، ويشقيهم في الآخرة عندما يؤدي بهم إنحرافهم عن الله إلى التعرض لعذابه . إنه لا يعتبر الرسالة تكليفاً صادراً من خارج ذاته . . بل يعتبرها قضيته الذاتية التي امتزجت بانسانيته فهو يتحرك من موقع الإحساس بها من الداخل لا من موقع الخروج عن عهدتها على أساس المسؤولية القانونية .

﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ فاطر/٨ .

﴿ لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ الشعراء/٣ .

﴿ ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضيق مما يمكرون ﴾ النحل/١٢٧ .

ولعلنا نستطيع أن نستوحي من هذه الأيات روحاً جديدة ينبغي للعاملين في سبيل الله أن يعيشوها إزاء الناس . . وهي الروح التي تتعاطف معهم وتحزن عليهم وتحس بالألم الكبير لضلالهم . . الأمر الذي يدفعها إلى أن تصبر وتثابر وتلاحق كل الوسائل والظروف في سبيل هدايتهم والوصول إلى قناعتهم تماماً كأية مشكلة تحصل لإنسان نرتبط به برباط القربى أو غيرها من الروابط الذاتية . . فإننا لا ندخر وسعاً في ملاحقة كل الإمكانيات للحل ولو كانت بعيدة أو متعبة .

إنها روح الرساليين الذين يعيشون الحب للناس والحرص عليهم . . ولذا فإنهم يواصلون المسيرة معهم ومن أجلهم دون تأفف أو تذمر أو ملل أو إستعجال لليأس . . إن هؤلاء هم الذين يمكن أن يستمروا في خط الرسالة . . أما الذين يحقدون على الناس أمام أية حالة تمرد بعيداً عن دراسة ظروفهم التي أدت بهم إلى ذلك فلا يحاولون البحث عن سبل جديدة للهداية . . بل يتوقفون عند الأساليب الجاهزة عندهم مما قد لا يتناسب مع عقلية هؤلاء المتمردين . . أما هؤلاء فإنهم يتحولون إلى عبء على الرسالة بدلاً من أن يكونوا دعاة لها . . لأن روحية الحقد لا يمكن أن تصنع الرسالات .

* * *

٤ ـ مواجهة التحديات . . أمام المنهج

لقد واجه النبي في مسيرته النبوية مشكلة المفاهيم المختلفة التي توارثها الناس عن أسلافهم حول طبيعة النبوة ودورها وقدراتها وشخصية النبي وقدراته . . فقد كانوا يرون أن النبوة تمثل حركة غير عادية في طبيعة الحياة من خلال ما توحيه من إرتباط الإنسان بالله الكلي القدرة مما يجعل للنبي القدرة المطلقة التي يكشف من خلالها الغيب ، ويغير بها طبيعة الأشياء على خلاف القوانين الطبيعية المألوفة ، إنطلاقاً من فكرة المعجزة المرتبطة بمفهوم النبوة إرتباطاً وثيقاً بالمستوى الذي يجعل منها حالة ذاتية ثابتة لدى النبي ، لا حالة طارئة خارج قدراته الطبيعية ، وبذلك يتوقف الإعتراف بالنبوة على ملاحظة ما يملكه في هذا المجال . . وكانوا إلى جانب ذلك ، لا يألفون فكرة النبي البشر لأن البشرية لا تنسجم مع روحية النبوة التي تقتضي نوعاً من السموّ الروحي الذي يرتفع بالإنسان بعيداً عن كل ما يتصل بالمادة من قريب أو بعيد مما تقتضيه طبيعة البشرية من خضوع لضرورات الحياة وحاجاتها الطبيعية . . فلا بد أن يكون ملكاً يملك روحية الملائكة وطاقاتهم الهائلة فيما كان العرب يعتقدونه فيهم .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن بعض هذه المواقف التي تعرض لها النبي محمد (ص) من قبل قومه في مكة واليهود في المدينة ، وقد نجد في هذه الآيات بعض الايحاءات التي نحس معها بالحالة النفسية الضاغطة التي كان يعيشها النبي من خلال هذه التحديات المنطلقة من المفهوم العام للنبوة ، مما يجعل للموقف المضاد قوة التأثير على الرأي العام . ولكننا لا نجد تراجعاً من النبي عن موقفه وعن مواجهة ذلك كله بالموقف الصحيح الذي يراد منه تأكيد المفهوم الإسلامي للنبوة في مهماتها وللنبي في قدراته ، والايحاء بأن النبوة لا تتحرك في إطار خلق الصدمات المتلاحقة للأفراد والمجتمعات ، لتنقلهم من صرعة إلى صرعة في صدمات الإعجاز التي تخرج الحياة عن المألوف دائماً فتبهر العقول والأبصار ، بما لا تستطيع تفسيره وفهمه فتخشع له . . بل إنها تتحرك في إتجاه تحريك العقل البشري نحو القضايا الفكرية من موقع فكري طبيعي يلاحق الفكرة بأدواتها الطبيعية لتصل إلى العقيدة بأقرب طريق ، وترتبط بالمفاهيم العامة لها من خلال الأسس المرتكزة عليها ، لأن

النبوة تنطلق من قاعدة صنع الإنسان وتنميته ليمارس دوره الفاعل في خلافته عن الله في الأرض ، ولا تستهدف تحويله إلى شخص مسحور يعيش الإنبهار بالأساليب غير العادية من دون نتيجة كبيرة .

أما البشرية في النبوة ، فتمثل الإطار الذي يضع الصورة في مكانها الطبيعي لأن النبي يمثل التجسيد الحي للمعاني التي يريد الدين أن يجسدها في شخصية الإنسان وحياته ، فلا بد أن يكون تجربة حية متحركة أمامه ليكون مثالاً واقعياً على السمات الواقعية للفكرة . . لأن النبي لو كان ملكاً لما كان في تجربته أي حافز للإنسان على ملاحقة الفكرة في عملية تمثل واقتداء إنطلاقاً من الضغط الشعوري الذي يمثل أن القضية تتجاوز قدراته الذاتية ، لأنها لم تنطلق من بشر ، بل عاشت في كيان الملك وهذا ما قرره الله سبحانه في كتابه .

﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً . . ﴾ .

أما المعجزة . . فإنها ليست عملاً من النبي بل هي من الله . . ثم هي الطريقة الإلهية التي يراد بها إعطاء الصدمة التي تواجه التحدي الكبير الذي يريد أن يشل الحركة فتأتي لترفع الحواجز الكبيرة من طريق العمل الكبير ، ولهذا نجد للمعجزة دورها المتحرك الفاعل في حياة النبيين بل نواجه بعض الحالات البسيطة التي تنطلق المعجزة فيها لترد التحدي أو لتعطي انطباعاً ، ثم يتركها النبي خلفه عندما يمارس رسالته دعوةً وعملاً ، من دون أن يشير إليها من قريب أو بعيد بشكل أساسي إلا إذا دعت الحاجة إلى التذكير بها .

وقد يتأكد هذا المعنى ، إذا رأينا أن النبوة لم تقدم المعجزة أمامها في البداية ، لتكون في قلب الواجهة للدعوة ، بل قدمت في البداية مفاهيمها العامة بالإسلوب الطبيعي المألوف ، سواء في طريقة عرض الفكرة أوفي إسلوب الدفاع عنها ، أو إقناع الأخرين بها ، وكانت المعجزة تعيش في بعض المراحل المتوسطة والنهائية ، كما نجده في نبوة نوح وهود وإبراهيم أو شعيب أو موسى الذي كانت معجزة العصا واليد عنده موجهة إلى فرعون وجنده لا إلى الناس العاديين الذين دعاهم إلى رسالته .

وعلى ضوء هذا نجد الرفض المطلق في القرآن الكريم ، لكل الإقتراحات التي قدمت إلى النبي في هذا السبيل لأنه لم يجد أي حاجة لذلك ، بعد أن كان القرآن معجزة خالدة لمن أراد أن يعرف إرتباط النبي بالله . كما أن هذه التحديات ، لم تكن تشكل حاجزاً كبيراً بين الرسالة وبين إنطلاقتها الكبرى . بل لا تزيد عن أن ترضي غرور هؤلاء المشركين وزهوهم الذاتي لدى أنفسهم والآخرين المحيطين بهم ، من دون أن يعطلوا المسيرة النبوية المنطلقة من موقع العقل والفكر .

وهذا هو ما نتمثله في أجواء الآيات التالية :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً . . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً . . قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . . ﴾ الإسراء / ٩٠ ـ ٩٦ .

﴿ قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾ الانعام/٥٧ ـ ٥٨ .

هذه هي بعض نماذج الإقتراحات التي كانت تقدم إلى النبي على سبيل التحدي من أجل أن يهزموا موقفه لتبيان عجزه عن إثبات رسالته . . ونلاحظ في هذا المجال عدة أمور :

١ ـ إنهم لا ينطلقون من تفكير واضح بل يتحركون في تصور عشوائي يطرح المطالب من موقع الإنسان الباحث عن الأشياء المستحيلة أو الصعبة التي لا يقدر الإنسان على الإستجابة فيها . . أو لا يمكن أن يجريها الله على يده ، ولهذا

تتلاحق الطلبات بشكل غير منتظم ومتناسب . . فبينما نراهم في الآيات الأولى يطلبون منه أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً أو يملك جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيراً ونراهم يطلبون أن تسقط السماء عليهم كسفاً أو يأتي بالله والملائكة قبيلا . . وفجأة يطلبون أن يرقى في السماء وأن يرجع ومعه شاهد على ذلك وهو الكتاب الذي يجلبه معه ليقرؤه ويعرفوا منه رسالته .

٢ ـ إن الجواب الذي علمه الله لرسوله ، هو أن يواجه القضية بهدوء رسالي يقربهم إلى الحقيقة الإنسانية ، وهي أن هذه الأمور ليست من مهمته ، وليست من قدرته . . أما عدم القدرة فللبشرية وأما إنها ليست من مهمته ، فلرساليته التي تنطلق من تغيير الواقع على أساس إرادة الله لا إصدار المعاجز اليومية على أساس الإقتراحات المزاجية . . ونلاحظ في هذا المجال أن النبي لم يعتبر هذا الموقف منه ضعفاً أمامهم . . لأن مجاله ليس مجال عرض العضلات للقوة الذاتية . . بل مجاله الطبيعي هو مجال إثارة المنهج في عقولهم ودفعهم إلى التراجع عن موقفهم والسير مع الخط السليم . . مما يجعل من قضية القوة والضعف أمراً نسبياً يرتبط بالمضمون لا بالشكل . . وبذلك تكون قوته في صموده أمام التحدي لخدمة القضية . . لا الإبتعاد عن خطه والإستسلام لمطالبهم المستحيلة .

٣ ـ إن على العاملين في سبيل الله أن يستفيدوا من ذلك في مرحلتهم الحاضرة أن يظلوا ثابتين على القواعد الصلبة من تفكيرهم ومفاهيمهم ومبادئهم أمام المزايدات والتحديات في القضايا البعيدة عن مهمتهم التي يراد من خلالها إبعادهم عن خطوطهم أو زحزحتهم عن مواقفهم . . إن عليهم أن يعرفوا جيداً أن المواقف الطارئة لا تستطيع أن تحقق نجاحاً إذا إنحرفت عن الخط لأن الأخرين سوف يستغلون هذا الخوف في مزايداتهم لفرض مواقف جديدة تزيد الإنسان بعداً . . وتزيد الناس الذي يدعوهم إلى الله إبتعاداً عن الإرتباط الواعي بالهدف الكبير المنطلق من المواقف الصلبة الثابتة .